

## مُقدِّمةُ الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ الْعَلَّامَةُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ، مُفْتِي الْأَنَامِ، أَوْحَدُ عَصْرِهِ، وَفَرِيدُ دَهْرِهِ، نَاصِرُ السُّنَّةِ، وَقَامِعُ الْبِدْعَةِ، تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَلَّامَةِ شَهَابِ الدِّينِ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَلَّامَةِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ، مَجْدِ الدِّينِ، أَبِي الْبَرَكَاتِ عَبْدِ السَّلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ الْحَرَّانِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-:

قَالَ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

أما بعد: فغیرُ خافٍ على الجميع حَيَاةُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَمَقَامَاتُهُ فِي الْإِسْلَامِ، هَجُومًا عَلَى الْأَعْدَاءِ وَدِفَاعًا عَنِ الْإِسْلَامِ، فَكَلَامُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ دَائِرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، بَلْ مَوْلَفَاتُهُ كُلُّهَا:

■ إِمَّا دِفَاعًا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ مَا أَلْفَهُ فِي بَابِ الرُّدُودِ؛ مِثْلُ رَدِّهِ عَلَى الرَّافِضِيِّ فِي كِتَابِهِ (مِنْهَاجِ السُّنَّةِ)، وَرَدِّهِ عَلَى الرَّازِيِّ فِي (نَقْضِ التَّائِسِيسِ) وَغَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْمَعْرُوفَةِ.

..... الْحَمْدُ لِلَّهِ<sup>[١]</sup>

■ وَإِنَّمَا هُجُومًا عَلَى الْبَاطِلِ، يُؤَلَّفُ تَأْلِيفًا جَدِيدًا لَيْسَ بَرَدًّا، لَكِنْ لِيُثَبَّتَ فِيهِ الْحَقُّ وَيُبْطَلَ الْبَاطِلُ.

وَمَقَامَاتِهِ مَعْرُوفَةٌ، كَمَا فِي تَرْجُمَتِهِ، لِأَنَّهُ قَدْ تَرَجَّمَ الْعُلَمَاءُ لَهُ بِتَرَاجِمٍ مُسْتَقَلَّةٍ، وَبِتَرَاجِمٍ ضَمَّنَ مَنْ تَرَجَّمَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ.

[١] قوله: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» جُمْلَةٌ اِسْمِيَّةٌ مَكُونَةٌ مِنْ مَبْتَدَأٍ وَخَيْرٍ، وَالْجُمْلَةُ اِلِسْمِيَّةُ تَفِيدُ الثُّبُوتَ وَالِاسْتِمْرَارَ، يَعْنِي: أَنَّ الْوَصْفَ بِالْكَمَالِ وَالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ مُسْتَحِقٌّ لِلَّهِ، فَالْحَمْدُ وَصْفٌ، وَالْوَصْفُ بِالْكَمَالِ وَصْفٌ؛ لِأَنَّ الْمَحْمُودَ يُحْمَدُ عَلَى كَمَالِهِ وَعَلَى فَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ، فَالْحَمْدُ الَّذِي هُوَ الْوَصْفُ بِالْكَمَالِ وَالْفَضْلِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَكُلُّ مَنْ سِوَاهُ فَمَا فِيهِ مِنَ الْكَمَالِ وَالْفَضْلِ فَإِنَّهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَالْمَحْمُودُ لِدَاتِهِ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ وَلِهَذَا أَتَى بِالْجُمْلَةِ اِلِسْمِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى الثُّبُوتِ وَالِاسْتِمْرَارِ وَعَلَى الْحَضَرِ أَيْضًا.

وَلَا يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْحَمْدَ هُوَ الْوَصْفُ بِالثَّنَاءِ؛ لِأَنَّهُ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمْدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَتْنِي عَلَى عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجْدِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي»<sup>(١)</sup>، فَجَعَلَ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ، وَتَفْسِيرُ الْحَمْدِ بِالثَّنَاءِ الْجَمِيلِ خَطَأٌ؛ لِأَنَّ الثَّنَاءَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَكَرُّرِ الْحَمْدِ وَ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، جَعَلَهَا اللَّهُ حَمْدًا، وَ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، جَعَلَهَا اللَّهُ ثَنَاءً.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٤).

نَحْمَدُهُ<sup>[١]</sup> وَنَسْتَغْفِرُهُ<sup>[٢]</sup>، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا<sup>[٣]</sup>،.....

[١] قوله: «نَحْمَدُهُ» جملة فعلية، وقد أولاً بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، ثم أتى بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، كأنَّ القائل يقول بعد أن أثبت الله الحمد، أعوذ فأحمده أيضاً، فصارت «نَحْمَدُهُ» جملة فعلية تفيد التجدد؛ لأنَّ الإنسان لما وصف الله بالحمد بعد ذلك، عاد مرة أخرى فحمده حمداً.

[٢] قوله: «نَسْتَغْفِرُهُ» نطلب منه العون.

[٣] «وَنَسْتَغْفِرُهُ» نطلب منه المغفرة.

وما هي المغفرة؟ هي السِّرُّ مع التَّجَاوُزِ، فإذا قلتَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي فمعناه اسْرِ الذُّنُوبَ وَتَجَاوُزْ، لَا بُدَّ مِنْ سِرٍّ وَتَجَاوُزٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَسْرِ عَنْ النَّاسِ وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ فَلَا يَعَاقِبُهُمْ، إِذَنْ: الْمَغْفِرَةُ سِرُّ الذَّنْبِ وَالتَّجَاوُزُ عَنِ الْعُقُوبَةِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ السِّرُّ فَقَطْ؛ لِأَنَّهَا مَأْخُودَةٌ مِنَ الْمَغْفَرِ، وَالْمَغْفَرُ: هُوَ مَا يَوْضَعُ عَلَى الرَّأْسِ عِنْدَ الْحَرْبِ، وَهَذَا الْمَغْفَرُ يَفِيدُ الرَّأْسَ السِّرَّ وَالْوَقَايَةَ أَيْضًا، فَفِي الْوَقَايَةِ عَدَمُ الْمُواخَذَةِ. وعلى هذا نقول «وَنَسْتَغْفِرُهُ»: أي: نسأله المغفرة، وهي: سِرُّ الذُّنُوبِ مع التَّجَاوُزِ عنها، فَلَا يُوَاخِذُ عَلَيْهَا.

[٤] قوله: «وَنَعُوذُ»: بِمَعْنَى نَلْجَأُ أَوْ نَعْتَصِمُ «مِنْ شُرُورِ» جَمْعُ شَرٍّ، «أَنْفُسِنَا» وَالنَّفْسُ فِيهَا شَرٌّ، وَفِيهَا خَيْرٌ، فَالنَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ فِيهَا خَيْرٌ، وَالنَّفْسُ اللَّوَامَةُ فِيهَا شَرٌّ، وَقِيلَ: إِنَّ النَّفْسَ الْأَمَارَةَ هِيَ الَّتِي فِيهَا الشَّرُّ، وَالنَّفْسُ اللَّوَامَةُ تَلُومُ فَقَطْ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ فِيهِ ثَلَاثُ قُوَى:

■ قُوَّةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ، وَهَذِهِ هِيَ النَّفْسُ الْأَمَارَةُ.

وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا<sup>[١]</sup>، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ<sup>[٢]</sup>، وَمَنْ يُضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ<sup>[٣]</sup>،

■ وقوة تأمره بالخير، وهذه هي النفس المطمئنة.

■ وقوة تلومته إذا فعل الخير، أو إذا فعل الشر، أو إذا فوت الخير، وهذه هي النفس اللوامة.

وكلها مذكورة في القرآن: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، ﴿يَتَابَتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ﴾ (١) ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢]، فالأنفس فيها شرور، والعبد يستعيد بالله من شرها؛ لأن الله إن لم يعصمه من شرها أهلكته.

[١] قوله: «وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا» هل المراد من سيئات أعمالنا: أن نفعلها، أو المراد من سيئات أعمالنا: عقوبة سيئات أعمالنا؟ الجواب: كلا الأمرين، من السيئات فعلا، ومن السيئات عقوبة، من سيئات أعمالنا أن نفعلها، أو أن يقع بنا عذابك منها.

[٢] قوله: «مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ» هذا فيه تفويض الأمر إلى الله تبارك وتعالى في الهداية، يعني: من يُقدِّر هدايته فلا مُضِلَّ لَهُ، ومن يَهْدِهِ بالفعل أيضا فلا أحد يستطيع أن ينتشله من هذه الهداية، فالمراد هي الهداية تقديرًا أو فعلًا واقعًا، فمن قدَّر الله أن يهديه فلا يستطيع أحد أن يضرفه عن الصراط المستقيم، والذي هداه الله بالفعل لا يستطيع أحد أيضًا أن ينتشله من هذه الهداية، فهو شامل للأمرين.

[٣] قوله: «وَمَنْ يُضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ» مَنْ يُقدِّر الله له الإضلال أو الضلال فإنه لا أحد يهديه، وكذلك من أضله الله فعلا فلا أحد ينتشله من هذا الضلال؛ لأن الله تعالى هو الذي له الأمر وحده.

وجملة: «وَمَنْ يُضِلُّ» لا حُجَّةَ فيها للعصاة الضَّالِّينَ إذا قالوا: «مَنْ يَهْدِيهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ»؛ لأنَّ الله تعالى قد جعل للهداية أسبابًا وللضلال أسبابًا وأعلمك بها وأقدرك عليها، ويُنَّ لك هذه الأسباب، كما قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، أي: طريقَي الخير والشرِّ، وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، يعني: سواءً كان شاكرًا أو كفورًا فقد هداه الله السبيل وبينه له؛ ولهذا يقول الله عزَّ وجلَّ في الضَّالِّينَ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. إذن هم السَّبب في أن الله تعالى يضلُّهم.

ولهذا تجد هؤلاء العصاة الذين يحتجُّون بالقدرِ ويقولون: من يضلُّ الله فلا هادي له، تجدُّهم في مصالح دُنْيَاهُمْ لا يحتجُّون بالقدرِ، وفي مصالح دِينِهِمْ يحتجُّون بالقدرِ، ولا يفعلون ما هو من مصالح دِينِهِمْ، ويفعلون ما يرونه من مصالح دُنْيَاهُمْ، فالطريق الذي فيه قُطَاعُ طريق وفيه مطابٌ وفيه مَوْتٌ، فلا شكَّ أنه لن يسلكه، بل يسلك الطريقَ الأسلمَ المعبدَّ، لو كان أمامك طريقانِ إلى (الرَّيَاضِ)، طريقٌ كلُّهُ أشواكٌ ومخوفٌ، وطريقٌ آمِنٌ ومعبدٌ، ووقفنا عند سورِ البلدِ وقلنا لهم: الذي يحبُّ السلامةَ يذهبُ من هذا الطريقِ، والذي يحبُّ الهلاكَ يذهبُ من هذا الطريقِ، فالضَّالُّونَ الذين يحتجُّون بالقدرِ سيذهبونَ من طريقِ السلامةِ ولا يذهبونَ من طريقِ الهلاكِ، ولا يقولونَ هذا مقدَّرٌ علينا.

هذا مثالٌ، وكذلك الشَّرْعُ، فلو قيل: إنك لو سلكتَ هذا الطريقَ تصلُ إلى الجنةِ، ولو سلكتَ هذا تصلُ إلى النَّارِ، فأنت الآن بينَ طريقَيْنِ فاسلكِ التي تبغيَ منهم، فلا شكَّ أن المؤمنَ يسلكُ طريقَ الخيرِ وطريقَ الجنةِ، وذاك يسلكُ طريقَ النَّارِ،

وَأَشْهَدُ<sup>[١]</sup> أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ<sup>[٢]</sup> .....

ثم يحتج علينا بالقدر، وهذا احتجاجٌ باطلٌ بلا شك.

فكما أنك في أمورِ دُنياك تختارُ لنفسِكَ ما تراه أسلمَ وأصلحَ، إذن فيجب عليك أن تختارَ لدينَكَ ما تراه أسلمَ وأصلحَ.

[١] قوله: «وَأَشْهَدُ»، في نسخة «نشهد»، والرواية ثبَّت: «وَأَشْهَدُ» والسبب أنه في أوَّل الخطبة قال: «نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ» وهنا قال: «وَأَشْهَدُ» لأنَّ الأنسب لمقام التَّوْحِيد: توحيدُ الفِعْلِ، إذا قلت: (أشهد) فهذا فِعْلٌ توحيد، وإذا قلت: (نشهد) فهذا جمعٌ للفِعْلِ؛ فلذلك قد جاء في الرواية بـ(أشهد) دون (نشهد).

[٢] قوله: «أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ» إلهٌ بمعنى (مألوه): معبودٌ، فهو (فِعَال) بمعنى (مفعول).

وهل تأتي (فِعَال) في اللغة العربيَّة بمعنى مفعول؟

الجواب: أن (فِعَال) تأتي بمعنى (مفعول) بكثرة في اللغة العربيَّة، ومثاله: «عِنْدِي غِرَاسٌ مِنَ النَّخْلِ» فهي بمعنى (مغروس).

والحصرُ في «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» أي: لا معبودَ إلا اللهُ، هذا الحصرُ هنا على رأي أكثر المقَدِّرين: حصرٌ إضافيٌّ، والفرقُ بين الحصرِ الإضافيِّ والحصرِ الحقيقيِّ أنَّ الحصرَ الحقيقيَّ يكونُ الحصرُ فيه بحسبِ الواقعِ والحقيقة، أما الإضافيُّ فيكونُ حصرًا حسبَ إضافةٍ لشيءٍ مُعَيَّن.

فمثلاً إذا قلت: لا شمسَ إلا هذه، فهذا حصرٌ صحيحٌ حقيقيٌّ.

وإذا قلنا: لا شجاعَ إلا خالدُ بنُ الوليد. فالحصرُ إضافيٌّ؛ لأنَّه يُوجد شجاعانُ

وَحْدَهُ<sup>[١]</sup> لَا شَرِيكَ لَهُ<sup>[٢]</sup>، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا<sup>[٣]</sup> عَبْدُهُ.....

غيره، لكنّ هذا الحضر الإضافي بالنسبة إلى شيء مُعَيَّن، فههنا بالنسبة مثلاً إلى وقعة اليرموك، فليس هناك شجاعٌ غيره مثلاً، فالإضافي معناه أنّه بالإضافة إلى شيء مُعَيَّن، ومثله «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

فإذا قلنا: لا معبودَ إلا الله، ففيل: أليست الأشجار تُعبدُ؟

الجواب: بلى تعبدُ، وكذلك الأصنامُ تعبدُ، والملائكة تعبدُ، والرُّسل يُعبدون، والأولياء يُعبدون إلى آخره، فكيف نقول: لا معبودَ إلا الله؟

الحضرُ إذن ليس حقيقياً بل إضافياً، ومعنى الإضافة هنا: أي: لا معبودَ يَسْتَحِقُّ العبادَةَ إلا الله، كلُّ المعبوداتِ غيره - وإن سُمِّيَتْ آلهةً - فإنها ليست إلا كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ [النجم: ٢٣]، وإلا فليست آلهةً يعني: لأنّها لا تَسْتَحِقُّ أن تكون آلهةً، فالمشرك يقول: هذه الشجرةُ إلهٌ يَسْتَحِقُّ العبادَةَ، فنقول: أنت وإن سُمِّيَتْها إلهًا فليست إلهًا حقيقةً، فلا إلهَ حقيقةً إلا الله.

[١] قوله: «وَحْدَهُ» فيها تأكيدٌ للنفي، يعني: معناه أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يوجدُ إلهٌ إلا هو وَحْدَهُ.

[٢] قوله: «لَا شَرِيكَ لَهُ» تأكيدٌ لـ (وَحْدَهُ)، يعني: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يوجدُ إلهٌ إلا هو وَحْدَهُ لا شريكَ له؛ تحقيقاً للتوحيد.

[٣] قوله: «مُحَمَّدًا» هو مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْهَاشِمِيُّ الْقُرَشِيُّ.

[٤] قوله: «عَبْدُهُ»، هذه العبوديةُ خاصّةٌ، وهي أيضاً متضمّنةٌ للعبوديةِ العامّةِ؛ لأنّ كلّ ذي عبوديةٍ خاصّةٍ ففيه العبوديةُ العامّةُ، ولا عكس، عندما نقول مثلاً: هذا

وَرَسُولُهُ<sup>[١]</sup>، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا<sup>[٢]</sup>.

الرَّجُلُ الْكَافِرُ هو عبدٌ لله بالمعنى العام: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، لكن بالمعنى الخاص ليس عبدًا لله، عندما نقول: هذا المؤمن عبدٌ لله. يكون بالمعنى الخاص والعام.

[١] قوله: «وَرَسُولُهُ» أي: مُرْسَلُهُ، أَرْسَلَهُ اللهُ تعالى إلى جميع الخلق - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم -.

[٢] الْمُؤَلَّفُ رَحْمَةُ اللَّهِ دَائِمًا يُصَدَّرُ كُتُبُهُ بهذه الخطبة، الَّتِي هي خطبةُ الحاجة، كما قَالَ عبد الله بْنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَلَّمَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْخُطْبَةَ لِلْحَاجَةِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا»<sup>(١)</sup>.

وهذه الخطبةُ يَنْبَغِي لِلإنْسَانِ أَنْ يُقَدِّمَهَا بَيْنَ يَدَيِ حَاجَاتِهِ عندما يريدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بكلمةٍ في مَحْفَلٍ، كَذَلِكَ عندما يريدُ أَنْ يَعْقِدَ نِكَاحًا فَإِنَّهُ يَقُولُ هذه الخطبة، وَيَقْرَأُ أيضًا ثلاثَ آياتٍ، لَكِنَّ الْمُؤَلَّفَ رَحْمَةُ اللَّهِ لَمْ يَذْكُرْهَا، وهي:

الآية الأولى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

الآية الثانية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْا خَلْقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ؕ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

الآية الثالثة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ؕ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٨).

أَمَّا بَعْدُ<sup>[١]</sup>: فَقَدْ سَأَلَنِي مَنْ تَعَيَّنَتْ إِجَابَتُهُمْ<sup>[٢]</sup> أَنْ أَكْتُبَ لَهُمْ مَضْمُونَ مَا سَمِعُوهُ مِنِّي فِي بَعْضِ الْمَجَالِسِ؛ مِنَ الْكَلَامِ فِي التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ، وَفِي الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ<sup>[٣]</sup>؛ لِمَسِيسِ الْحَاجَةِ إِلَى تَحْقِيقِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ<sup>[٤]</sup>، وَكَثْرَةِ الْإِضْطِرَابِ فِيهِمَا.

[١] قوله: «أَمَّا بَعْدُ» يؤتى بها للانتقال إلى الغرض وهو:

[٢] قوله: «فَقَدْ سَأَلَنِي مَنْ تَعَيَّنَتْ إِجَابَتُهُمْ» لم يُبَيِّنِ الْمُؤَلِّفُ رَحْمَةُ اللَّهِ مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَأَلُوهُ، لَكِنْ قَالَ: «مَنْ تَعَيَّنَتْ إِجَابَتُهُمْ» يَعْنِي: وَجِبَتْ عَلَيَّ إِجَابَتُهُمْ، وَهَلْ هُوَ لَشَرَفِهِمْ وَوَجَاهَتِهِمْ أَوْ لِحَاجَتِهِمْ إِلَى مَا سَأَلُوهُ؟

الْجَوَابُ: الظَّاهِرُ أَنَّهُ لِحَاجَتِهِمْ إِلَى مَا سَأَلُوا؛ لِأَنَّ مَنْ سَأَلَ عِلْمًا وَهُوَ يَقْصِدُ الْحَقَّ وَجَبَ عَلَى الْمَسْئُولِ أَنْ يُجِيبَ، وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ هَؤُلَاءِ السَّائِلِينَ كَانُوا مِنْ أَهْلِ تَدْمُرٍ؛ وَلِهَذَا سَمِّيَ الْكِتَابُ بِالتَّدْمِيرِيَّةِ، وَتَدْمُرٌ مِنْ قُرَى حَلَبِ الشَّامِ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ إِلَى الْآنِ.

[٣] قوله: «أَنْ أَكْتُبَ لَهُمْ مَضْمُونَ مَا سَمِعُوهُ مِنِّي فِي بَعْضِ الْمَجَالِسِ؛ مِنَ الْكَلَامِ فِي التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ وَفِي الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ» فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ بَيَانُ سَبَبِ تَأْلِيفِ الْمُؤَلِّفِ رَحْمَةُ اللَّهِ لِهَذَا الْكِتَابِ: أَنَّهُ سَأَلَهُ مَنْ تَعَيَّنَتْ إِجَابَتُهُمْ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ بَعْضَ مَا سَمِعَهُ مِنْهُ فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ:

■ الْكَلَامُ فِي التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ.

■ وَالْكَلامُ فِي الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ.

[٤] أَوَّلًا: «لِمَسِيسِ الْحَاجَةِ إِلَى تَحْقِيقِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ» الْحَاجَةُ إِلَى تَحْقِيقِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ، يَعْنِي: لِأَنَّ الْحَاجَةَ مَاسَّةً إِلَى تَحْقِيقِهَا.

فَإِنَّهُمَا مَعَ حَاجَةٍ كُلِّ أَحَدٍ إِلَيْهِمَا<sup>(١)</sup>، وَمَعَ أَنَّ أَهْلَ النَّظَرِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِبَادَةِ<sup>(٢)</sup>، لَا بُدَّ أَنْ يَخْطِرَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَوَاطِرِ وَالْأَقْوَالِ مَا يَحْتَاجُونَ مَعَهُ إِلَى بَيَانِ الْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ، لَا سِيَّامَا مَعَ كَثْرَةِ مَنْ خَاصَّ فِي ذَلِكَ بِالْحَقِّ تَارَةً وَبِالْبَاطِلِ تَارَاتٍ، وَمَا يَعْتَرِي الْقُلُوبَ فِي ذَلِكَ مِنَ الشُّبْهِ الَّتِي تُوقِعُهَا فِي أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ<sup>(٣)</sup>.

ثانيًا: «وَكثرة الاضطرابِ فيهما» الاضطرابُ معناه: الاختلافُ، وهو اختلافُ العلماءِ في هذين الأصلين، وهما التَّوْحِيدُ والصفَاتُ، والشَّرْعُ والقَدَرُ، والعلماءُ مضطربون فيهما، فلما دَعَتِ الْحَاجَةُ واضطربَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِأَحَدٍ يُبَيِّنُ، فَلَوْ لَمْ تَكُنِ الْحَاجَةُ مَاسَّةً إِلَى هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ لَمَا كَانَتِ الْحَاجَةُ مَاسَّةً إِلَى مَعْرِفَتِهِمَا، وَلَوْ كَانَ الْعُلَمَاءُ مُتَّفِقُونَ فِيهَا عَلَى شَيْءٍ لَمَا كَانَتِ الْحَاجَةُ أَيْضًا دَاعِيَةً إِلَى ذَاكَ الْبَيَانِ، فَلَمَّا مَسَّتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِمَا واضطربَ النَّاسُ فِيهِمَا صَارَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَبَيَّنَ الْحَقُّ فِيهِمَا.

[١] قوله: «فَإِنَّهُمَا مَعَ حَاجَةٍ كُلِّ أَحَدٍ إِلَيْهِمَا» هذا يعودُ إِلَى قَوْلِهِ: «لِمَسِيسِ الْحَاجَةِ».

[٢] وقوله: «وَمَعَ أَنَّ أَهْلَ النَّظَرِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِبَادَةِ» عائدٌ عَلَى قَوْلِهِ: «وَكثرة الاضطرابِ» لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ فِي الْحَقِيقَةِ يَرُدُّ فِي قَلْبِهِ أَوْ يَرُدُّ عَلَى لِسَانِهِ مِنَ الْخَوْضِ فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ مَا هُوَ خِلَافُ الْحَقِّ أَحْيَانًا.

[٣] حتى فِي عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الصَّحَابَةُ جَاءُوا وَيَشْكُونُ إِلَى الرَّسُولِ شَيْئًا الرَّجُلُ مِنْهُمْ: «يَخْرُجُ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَفُوهَ بِهِ»<sup>(١)</sup>، مِنَ الشُّبْهَاتِ الَّتِي

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (٣/١٠٢٢)، وأبو يعلى (٤/١٥٦).

فَالْكَلَامُ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ: هُوَ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ الدَّائِرِ بَيْنَ النَّفْيِ  
وَالْإِثْبَاتِ<sup>[١]</sup>.

يُلْقِيهَا الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ، فَبَعْضُ النَّاسِ يَهْدِيهِ اللَّهُ، وَبَعْضُ النَّاسِ يَضِلُّ، فَيَكُونُ  
كَمَا قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا بُدَّ أَنْ يَخْطُرَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَوَاطِرِ وَالْأَقْوَالِ مَا يَحْتَاجُونَ  
مَعَهُ إِلَى بَيَانِ الْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ لَا سِيَّمَا مَعَ كَثْرَةِ مَنْ خَاضَ فِي ذَلِكَ بِالْحَقِّ تَارَةً وَبِالْبَاطِلِ  
تَارَاتٍ، وَمَا يَعْتَرِي الْقُلُوبَ فِي ذَلِكَ مِنَ الشُّبْهِ الَّتِي تُوقِعُهَا فِي أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ».

الجملة من: «أَمَّا بَعْدُ» إلى: «أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ» تتضمن مسألتين:

أَوَّلًا: السَّبَبُ فِي تَأْلِيفِ الْمُؤَلَّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْكِتَابِ، وَهُوَ أَنَّهُ سَأَلَهُ بَعْضُ مَنْ  
تَعَيَّنَتْ إِجَابَتُهُ أَنْ يَكْتُبَ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ وَفِي بَابِ الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ.

الثَّانِيَّةُ: سَبَبُ وَجُوبِ الْإِجَابَةِ عَلَى السُّؤَالِ.

وَهَلِ الْمُؤَلَّفُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَجِيبَ عَلَى هَذَا، وَلَأَيِّ شَيْءٍ؟

يَجِبُ، وَلَسَبَبَيْنِ أَيْضًا هُمَا:

الأَوَّلُ: مَسِيسُ الْحَاجَةِ إِلَى بَيَانِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ.

الثَّانِي: اضْطِرَابُ النَّاسِ فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ، يَعْنِي: اخْتِلَافُ أَقْوَالِهِمْ وَهَذَا  
الاضْطِرَابُ فِي الْحَقِيقَةِ مَنْشَأُهُ مَا يَخْطُرُ فِي الْبَالِ مِنْ هَذِهِ الشُّبْهِ، وَمَا يَكْتُبُ أَوْ يُقَالُ مِنْ  
هَذِهِ الشُّبْهِ.

[١] قَالَ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَالْكَلَامُ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ: هُوَ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ

الدَّائِرِ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ» وَلَا بُدَّ مِنَ الْإِنْتِبَاهِ لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ لِأَنَّهَا مُهِمَّةٌ جَدًّا تَحْتَاجُ إِلَى تَمَعُّنٍ  
فِي الْفَهْمِ، فَالْكَلَامُ فِي التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ هَلْ هُوَ طَلَبٌ وَإِرَادَةٌ أَمْ إِثْبَاتٌ وَنَفْيٌ؟

والجواب: باب التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ هو في الْحَقِيقَةِ من بابِ الْخَبَرِ الدَّائِرِ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، فَالتَّوْحِيدُ أَسَاسُهُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، و(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) خَبَرٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ غَفُورٌ رَحِيمٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، هَذَا أَيْضًا خَبَرٌ.

والمؤلف يقول: الْكَلَامُ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ الدَّائِرِ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، قُلْنَا هَذَا إِثْبَاتٌ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، هَذَا نَفْيٌ، ﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، نَفْيٌ أَيْضًا، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، نَفْيٌ أَيْضًا.

إِذْنٌ فِي بَابِ الصِّفَاتِ الْكَلَامُ فِيهَا دَائِرٌ بَيْنَ الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ، وَإِذَا شِئْنَا مِثَالًا فَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ: نَفْيٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ: إِثْبَاتٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١-٢]، إِثْبَاتٌ، ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، نَفْيٌ.

إِذْنُ الْمَطْلُوبُ مِنَ الْإِنْسَانِ هُوَ أَنْ يُصَدِّقَ أَوْ يَكْذِبَ بِهَذَا الْخَبَرِ الْمَثْبُتِ أَوِ الْمُنْفِيِّ، يَعْنِي: الْخَبَرُ الدَّائِرُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ يَقَابَلُ بِالتَّصْدِيقِ أَوِ التَّكْذِيبِ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي الْبَلَاغَةِ: بِأَنَّهُ مَا يَحْتَمِلُ الصَّدَقَ وَالْكَذِبَ بِذَاتِهِ، أَوْ مَا يَصِحُّ أَنْ يَقَالَ لِقَائِهِ: صَدَقْتَ أَوْ كَذَبْتَ.

وَالْكَلَامُ فِي الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ: هُوَ مِنْ بَابِ الطَّلَبِ وَالْإِرَادَةِ: الدَّائِرُ بَيْنَ الْإِرَادَةِ  
وَالْمَحَبَّةِ وَبَيْنَ الْكَرَاهَةِ وَالْبُغْضِ: نَفْيًا وَإِثْبَاتًا<sup>[١]</sup>.

[١] الكلام في الشرع والقدر هو من باب الطلب والإرادة الدائر بين الإرادة  
والمحبة، وبين الكراهة والبغض، والكلام في الشرع والقدر هو أوامر الشرع، افعل  
كذا، لا تفعل كذا، فهو يدور بين الإرادة والمحبة، هذا قسم، وبين الكراهة والبغض،  
هذا قسم آخر.

يعني مثلاً: عندما يأمرُك الله بأمرٍ كإقامة الصلاة فبأي شيء تُقابل هذا الأمر،  
بتصديق أو تكذيب، أم تقابله بإرادة أو كراهة؟

الجواب: تقابله بإرادة أو كراهة، إذن فباب الشرع والقدر من باب الطلب الدائر  
بين الإرادة والقبول أو بين الكراهة والرفض، لكن الكلام في باب الصفات وفي باب  
التوحيد من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات المقابل بالتصديق أو التكذيب كما  
تقدم.

فصار هناك فرق بين التوحيد العلمي الذي يقابل إما بالتصديق أو التكذيب،  
والتوحيد العملي الذي يقابل بالقبول أو الرفض.

الناس إذا وُجَّه إليهم الأمر بـ(أقيموا الصلاة) تجد من الناس من ينشرح صدره  
لذلك ويحبه ويقبل ويصلي، ومنهم من يضيق صدره بذلك ولا يحبه ولا يصلي؛ لأنه  
من باب الطلب المقابل بالقبول والتنفيذ أو بالكراهة أو الرفض.

ولا بد من تصور هذا الأمر وأن كل ما في القرآن ما بين شرع وقدر، وتوحيد  
وصفات، فباب التوحيد والصفات الكلام فيه من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات

وَالْإِنْسَانُ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْفَرْقَ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ؛ وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ  
وَبَيْنَ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ وَالْحُضِّ وَالْمَنْعِ<sup>[١]</sup>؛ حَتَّى إِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا النَّوعِ وَبَيْنَ النَّوعِ  
الْآخِرِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ<sup>[٢]</sup>.....

من المخير، المقابل بالتصديق والتكذيب من المخير.

وبابُ الشرع والقدرِ الكلامُ فيه دائرٌ بين الإرادة والمحبة، وبين الكراهة والبغض،  
يعني: إما أن يكون مُرادًا محبوبًا، وإما أن يكون مكروهًا مبغوضًا.

فقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «نَفْيًا وَإِثْبَاتًا» معناه: قد تَنْتَفِي الكراهة والبغض فتأتي  
المحبة، وقد تَنْتَفِي المحبة فيأتي البغض، هذا معناه.

[١] صحيح، فالإنسان يجد من نفسه الفرق بين هذه الأشياء:

ففي بابِ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ: يجد من نفسه أن يقابل بالنفي والإثبات؛ أو التصديق  
والتكذيب، عندما يقول قائل: اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ، اللهُ سَمِيعٌ، اللهُ بَصِيرٌ، هذا خبرٌ،  
وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾  
وهو السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [الشورى: ١١]، هذا أيضًا خبرٌ، لكن الأول إثباتٌ، وهذا نفيٌ،  
يجد الإنسان نفسه تَعَلَّقَ بهذا الشيء، إما مُصَدِّقٌ وإما مُكذِّبٌ، إما أن يُصَدِّقَ بأن الله  
سميعٌ بصيرٌ أو يُكذِّبُ، إما أن يُصَدِّقَ بأنه وما ربك بظلامٍ أو يُكذِّبَ.

[٢] يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: «حَتَّى إِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا النَّوعِ وَبَيْنَ النَّوعِ الْآخِرِ  
مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ» لكن ليس الفرقُ معروفًا عندنا الآن، فنحن نُعْتَبَرُ لا من  
العامَّةِ ولا من الخاصَّةِ بناءً على قولِ المؤلف: إن الفرقَ بين الإنشاءِ أو بين الطلبِ  
والخيرِ معروفٌ عندَ العامَّةِ والخاصَّةِ.

وَمَعْرُوفٌ عِنْدَ أَصْنَافِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْعِلْمِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْفُقَهَاءُ فِي كِتَابِ  
الْأَيَّانِ<sup>[١]</sup>، وَكَمَا ذَكَرَهُ الْمُقَسِّمُونَ لِلْكَلامِ؛ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالنَّحْوِ وَالْبَيَانِ فَذَكَرُوا  
أَنَّ الْكَلَامَ نَوْعَانِ: خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ، وَالْخَبَرُ دَائِرٌ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَالْإِنْشَاءُ أَمْرٌ  
أَوْ نَهْيٌ أَوْ إِبَاحَةٌ<sup>[٢]</sup>.

لكنَّ كَلامَ المُؤَلِّفِ صَحيحٌ، فإذا قلنا للطفل الصغير: قُمْ أَحْضِرْ كَذَا وَكَذَا،  
بِمَاذَا يُجِيبُ؟ يَجِيبُ بِالْفِعْلِ بِمَعْنَى: امْتِثَالِ الطَّلَبِ، أَمَا إِذَا قُلْنَا لَهُ: جَاءَ أَبُوكَ، فَمَاذَا  
يَفْعَلُ؟ يَهْشُ وَيَفْرَحُ تَصَدِيقًا لِلْخَبَرِ.

إِذْ يَجِدُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْإِنْشَاءِ وَالْخَبَرِ، فِي الْحَقِيقَةِ الْفَرْقُ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ  
وَالْخَاصَّةِ، وَمَعْرُوفٌ عِنْدَ النَّاسِ كُلِّهِمْ، لَا أَحَدٌ يُنْكِرُ هَذَا، لَكِنْ يَبْذُؤُ لِي أَنَّنَا بَعِيدُو  
الْعَهْدِ عَنْ هَذَا الشَّيْءِ.

[١] قَوْلُهُ: «الْأَيَّانِ» جَمْعُ يَمِينٍ، وَلِلْفُقَهَاءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ كِتَابٌ يُسَمُّونَهُ  
كِتَابَ (الْأَيَّانِ وَالنُّدُورِ)، ذَكَرُوا فِيهِ الْفَرْقَ بَيْنَ الْخَبَرِ الْمَحْضِ وَالْإِنْشَاءِ الْمَحْضِ، وَمَا  
يُرَادُ بِهِ الْحُضُّ وَالْمَنْعُ، وَمَا يَرَادُ بِهِ الْخَبَرُ الْمَطْلُوقُ، ذَكَرُوا هَذَا وَفَصَّلُوهُ حَتَّى إِنَّهُمْ قَالُوا:  
إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا قَالَ لِرُجُلَتِهِ: إِنْ فَعَلْتَ كَذَا فَأَنْتَ طَالِقٌ. يَقْصِدُ الْمَنْعَ فَفَعَلْتَ لَمْ تَطْلُقْ،  
وَإِنْ قَصَدَ الْخَبَرَ، وَأَنَّهَا إِنْ فَعَلْتَ كَذَا فَهِيَ طَالِقٌ، فَإِذَا فَعَلَتْهُ تَطْلُقْ، فَفَرَّقُوا بَيْنَ الْحُضِّ  
وَالْمَنْعِ وَبَيْنَ الْخَبَرِ الْمَجْرَدِ.

[٢] يَقُولُ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْإِنْشَاءُ أَمْرٌ أَوْ نَهْيٌ أَوْ إِبَاحَةٌ» كَمَا سَيَأْتِي، وَمِثَالُهُ  
أَمْرُ الشَّرْعِ: افْعَلْ كَذَا، لَا تَفْعَلْ كَذَا، هَلْ مَقَامُكَ أَمَامَ هَذَا الشَّيْءِ تَصَدِيقٌ وَتَكْذِيبٌ أَمْ  
حُبٌّ وَبُغْضٌ، إِمَّا أَنْ تُحِبَّ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ فَتَفْعَلْ، أَوْ تَبْغِضَ فَلَا تَفْعَلْ، لَا تَجِدُ مِنْ نَفْسِكَ  
أَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِهَذَا الشَّيْءِ تَصَدِيقًا وَتَكْذِيبًا، وَإِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِهِ حُبًّا وَبُغْضًا.

وكما ذكره المقسمون بالكلام من أهل النظر والنحو والبيان.

ففي قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، هذا كله إنشاء بلا شك، لأنه أمر؛ يعني: نوعاً من أنواع الإنشاء.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥]، هذا إنشاء نهي.

وفي قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ [المائدة: ٩٦]، ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، هذه إباحة.

فالخلاصة أن الكلام ينقسم إلى قسمين، والمؤلف يقول:

■ خبرٌ دائرٌ بين النفي والإثبات، ويقابل الخبر بالنسبة للمخبر بالتصديق أو التكذيب.

■ وإنشاءٌ دائرٌ بين الأمر والنهي والإباحة، يقابل بالمحبة أو البغض.



## مَحْمَلُ الْوَاجِبِ عَلَى الْعَبْدِ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ أَنْ يُثَبِّتَ اللَّهُ مَا يَجِبُ إِثْبَاتُهُ لَهُ<sup>[١]</sup> مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ<sup>[٢]</sup>، وَيَنْفِي عَنْهُ مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنْهُ مِمَّا يُضَادُّ هَذِهِ الْحَالَ. وَلَا بُدَّ لَهُ فِي أَحْكَامِهِ مِنْ أَنْ يُثَبِّتَ خَلْقَهُ وَأَمْرَهُ فَيُؤْمِنَ بِخَلْقِهِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ قُدْرَتِهِ وَعُمُومَ مَشِيئَتِهِ<sup>[٣]</sup>، .....

[١] هذا في باب الخبر، فلا بُدَّ أَنْ يُثَبِّتَ اللَّهُ مَا أَثَبَّتَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَإِلَّا كَانَ مُكَذِّبًا بِالْخَبَرِ.

فَالَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنْ اللَّهُ لَيْسَ لَهُ يَدٌ حَقِيقَةٌ هَلْ يُكَذِّبُونَ بِالْخَبَرِ أَمْ لَا؟ فِي الْوَاقِعِ هُمْ مُكَذِّبُونَ، الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَيْسَ لِلَّهِ سَمْعٌ وَلَا بَصَرٌ يُكَذِّبُونَ بِالْخَبَرِ، فَالْوَاجِبُ أَنْ يُثَبِّتَ الْإِنْسَانُ مَا أَثَبَّتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ.

[٢] قَوْلُهُ: «يُثَبِّتَ اللَّهُ مَا يَجِبُ إِثْبَاتُهُ لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ» قَدْ يُقَالُ: هَلْ أَثَبَّتَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِ النَّقْصِ؟

الْجَوَابُ: لَا، إِذَنْ قَوْلُهُ: «مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ» بَيَانٌ لِلْوَاقِعِ: وَلَيْسَ قَيْدًا؛ إِذْ أَنْ جَمِيعَ الصِّفَاتِ الَّتِي أَثَبَّتَهَا اللَّهُ لِنَفْسِهِ صِفَاتُ كَمَالٍ، وَيَنْفِي عَنْهُ مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنْهُ مِمَّا يُضَادُّ هَذِهِ الْحَالَ، وَهَذِهِ الْحَالَ هِيَ صِفَاتُ الْكَمَالِ.

[٣] النُّوعُ الثَّانِي وَهُوَ الشَّرْعُ وَالْقَدَرُ قَالَ عَنْهُ: «وَلَا بُدَّ لَهُ فِي أَحْكَامِهِ مِنْ أَنْ يُثَبِّتَ

وَيُثَبِّتُ أَمْرَهُ الْمُتَضَمِّنَ بَيَانَ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَيُؤْمِنَ بِشَرِّعِهِ وَقَدْرِهِ إِيْمَانًا خَالِيًا مِنَ الزَّلَلِ<sup>[١]</sup>.

وَهَذَا<sup>[٢]</sup> يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي عِبَادَتِهِ<sup>[٣]</sup> وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعَمَلِ<sup>[٤]</sup>.

خَلَقَهُ وَأَمْرَهُ، فَيُؤْمِنُ بِخَلْقِهِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ قُدْرَتِهِ وَعُمُومَ مَشِيئَتِهِ» كل هذا في الشرع والقدر.

[١] «وَيُثَبِّتُ أَمْرَهُ الْمُتَضَمِّنَ بَيَانَ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ: مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ» ثم قال إجمالاً: «وَيُؤْمِنَ بِشَرِّعِهِ وَقَدْرِهِ إِيْمَانًا خَالِيًا مِنَ الزَّلَلِ».

[٢] هذا الذي هو الإنشاء.

[٣] يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي عِبَادَتِهِ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ مِنْ بَابِ الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَهَذَا يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي عِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ».

[٤] الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ كَتَبَ الْكِتَابَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ لَتَنْقِيحِهِ، وَلِهَذَا يَكْثُرُ فِي كَلَامِهِ التَّرَادُفُ؛ فَالْقَصْدُ وَالْإِرَادَةُ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ، وَهُوَ: التَّوْحِيدُ بِالْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعَمَلِ، يَعْنِي: مَعْنَاهُ عِنْدَمَا تَصَلِّي تُوَحِّدُ اللَّهَ؛ الصَّلَاةُ عِبَادَةٌ؛ تُوَحِّدُ اللَّهَ فِي قَصْدِكَ، لَا تَقْصِدُ بِصَلَاتِكَ إِلَّا اللَّهَ، وَفِي عَمَلِكَ الَّذِي هُوَ الصَّلَاةُ لَا تَقْصِدُ بِهِ إِلَّا اللَّهَ، وَالْأَوَّلُ الَّذِي هُوَ الْخَبَرُ يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي الْعِلْمِ وَالْقَوْلِ، وَالتَّوْحِيدُ بِالْعِلْمِ وَالْقَوْلِ يَعْنِي: أَنْ تَعْلَمَ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ فِي أَسْمَائِهِ، وَوَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ، وَوَاحِدٌ فِي أَفْعَالِهِ وَهِيَ الرُّبُوبِيَّةُ، فَأَنْتَ الْآنَ تُوَحِّدُ لَا فِي الْقَصْدِ وَالطَّلَبِ، وَلَكِنَّكَ تُوَحِّدُ كَمَا قَالَ الْمُؤَلَّفُ فِي الْعِلْمِ وَالْقَوْلِ، يَعْنِي:

وَالْأَوَّلُ يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي الْعِلْمِ وَالْقَوْلِ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ سُورَةُ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾<sup>(١)</sup>، وَدَلَّ عَلَى الْآخِرِ سُورَةُ: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ﴾<sup>(٢)</sup>.

وَهُمَا سُورَتَا الْإِخْلَاصِ، وَبِهِمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ فِي رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ<sup>(١)</sup> وَرَكْعَتَيْ الطَّوَافِ<sup>(٢)</sup> وَغَيْرِ ذَلِكَ<sup>(٣)</sup>.

عِلْمُكَ بِقَلْبِكَ أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ، لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ: تَوَحَّدَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقَوْلِ، هَلِ الْمُرَادُ بِالْقَوْلِ الذِّكْرُ وَالْعِبَادَةُ؟ الْجَوَابُ: لَا، الْقَوْلُ الْخَبَرُ عَنْ اللَّهِ بِأَن تَوَحَّدَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَمَا وَحَّدَ نَفْسَهُ بِذَلِكَ.

[١] قَوْلُهُ: «كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ سُورَةُ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾» هَلِ هُوَ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ أَمْ الْإِنْشَاءِ؟ الْجَوَابُ: أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ الَّذِي يَطْلُبُ مِنَ الْعِلْمِ، وَالْإِخْلَاصِ فِيهَا هُوَ إِخْلَاصُ اللَّهِ بِصِفَاتِهِ:

[٢] وَفِي: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ﴾ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنْتُمْ عِبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ④ وَلَا أَنْتُمْ عِبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿[الكافرون: ١-٦]، تَجِدُ أَنَّ الْإِخْلَاصَ إِخْلَاصُ الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ، ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ② وَلَا أَنْتُمْ عِبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿، فَأَنْتَ أَخْلَصْتَ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيمَنْ تَعْبُدُهُ، لَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ لَكِنْ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ لَيْسَ فِيهَا عِبَادَةٌ، وَلَكِنْ فِيهَا خَبَرٌ يَلْزَمُنَا نَحْوَهُ التَّصْدِيقُ.

[٣] قَوْلُهُ: «وَهُمَا سُورَتَا الْإِخْلَاصِ، وَبِهِمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ فِي رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ وَرَكْعَتَيْ الطَّوَافِ وَغَيْرِ ذَلِكَ»، كَمَا كَانَ يَقْرَأُ بِهِمَا فِي الْوُتْرِ فِي الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ، بَابُ اسْتِحْبَابِ رَكْعَتَيْ سَنَةِ الْفَجْرِ، رَقْمُ (٧٢٦).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ حُجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، رَقْمُ (١٢١٨).

والثالثة، وفي الركعة الأولى يقرأ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقرأ بهما في ابتداء العمل بعد ركعتي الفجر، وبانتهاء العمل بالوتر، ويتقرب بهما في ركعتي الطواف؛ لأن الحج يطلب فيه الإخلاص خلافاً لقريش الذين يلبون ويقولون: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك».

خلاصة هذا الكلام أن الكلام عموماً إما خبرٌ وإما إنشاءٌ:

■ والخبرُ دائرٌ بين النفي والإثبات، ويُقابل بالتصديق أو التكذيب.

■ والإنشاءُ دائرٌ بين الأمر والنهي والإباحة، ويُقابل بالإرادة والمحبة أو الكراهة والبغض؛ يعني: أن المأمور والمنهي إما أن يقبل ويحب ويريد ويعمل، أو يرفض العمل، فليس فيه تصديق وتكذيب.

والمؤلف يقول: إن سورتي الإخلاص ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ﴾، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تضمنت النوعين:

■ فالتّي تضمّنت الخبر ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

■ والتي تضمّنت الإنشاء ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ﴾؛ لأنّها عبادةٌ إخلاصية وقصيدة، ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) يعني: وإنما أعبد الله، ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٢)، وإنما تعبدون الأصنام، و﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ (١) يعني: لا أعبد عبادتكم، وإنما أعبد عبادة شرعها الله، ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٥) كذلك ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٦) هذه هي البراءة كاملة.

وإذا قال قائل: هل يعدُّ القدر من باب الإنشاء؟

فَأَمَّا الْأَوَّلُ: وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الصِّفَاتِ فَلَأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ: أَنْ يُوصَفَ  
اللهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَتْهُ بِهِ رُسُلُهُ<sup>[١]</sup>: نَفِيًّا<sup>[٢]</sup> وَإِثْبَاتًا<sup>[٣]</sup>؛ فَيُثَبِّتُ اللهُ مَا أَثَبَّتَهُ  
لِنَفْسِهِ وَيَنْفِي عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ<sup>[٤]</sup>.

فالجواب: لا، فإن القدر بالنسبة لفعل الله من باب الخير؛ لأنه فعله، لكن بالنسبة  
لفعل العبد فهو من باب الطلب؛ لأنه مأمور بالإيمان بأن الله تعالى خلقه شامل لكل  
شيء، ومشيتته شاملة لكل شيء.

[١] أي الأصل الأول في باب التوحيد في الصفات أن يوصف الله بما وصف  
به نفسه وبما وصفه به رسله نفيًا وإثباتًا.

[٢] مثال النفي: وصف الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

[٣] مثال الإثبات: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، الآية الكريمة جمعت بين النوعين  
النفي والإثبات.

[٤] اعلم أن النفي الموجود في صفات الله يتضمن إثباتًا ليس نفيًا محضًا، بل  
هو نفي بإثبات ضده، هذه قاعدة يجب أن نعرفها، أن النفي الموجود في صفات الله  
يتضمن إثباتًا؛ لأنه لا يحصل الكمال إلا بذلك، وليس النفي الموجود في صفات الله  
تعالى نفيًا محضًا.

إذا نظرنا إلى صفة الظلم وهي من صفات النفي: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾  
[الكهف: ٤٩]، هل نقول: إن الله سبحانه وتعالى متصف بانتفاء الظلم عنه انتفاء مجردًا  
فقط، أم نقول: إن المراد بذلك إثبات كمال عدله، وأنه لكمال عدله لا يظلم؟  
الصواب أن نقول: إن المراد بذلك إثبات كمال عدله.

وإذا قلنا لرجلٍ زَمِنٍ ضَعِيفٍ: هذا الرَّجُلُ لا يَظْلِمُ أَحَدًا، وهو زَمِنٌ ضَعِيفٌ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَعَدَّى عَلَى أَحَدٍ، هل يُعْتَبَرُ هَذَا مَذْحًا؟

الجواب: لا؛ لأنه عاجِزٌ عن الظُّلم، ولهذا يَقُولُونَ إن قولَ الشَّاعِرِ:

قُبَيْلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ<sup>(١)</sup>

وفي قول الشَّاعِرِ:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي حَسَبٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا<sup>(٢)</sup>

قول الشَّاعِرِ: «لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ»؛ أي: بَعِيدِينَ عَنِ الشَّرِّ بِيَادِلُونَ أَهْلَ الظُّلْمِ مَغْفَرَةً، وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانًا، وَمَعْنَى هَذِهِ الصِّفَاتِ، لَيْسَ فِيهِمْ شَرٌّ، وَأَيْضًا إِذَا ظَلَمَهُمْ أَحَدٌ قَالُوا: عَفَوْنَا عَنْهُ.

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفَرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانًا

عندما نقرأ هذه الأبيات نجد أن نفي الظلم والمجازاة بالمغفرة لمن ظلمهم، والإحسان لمن أساء إليهم صفات نقصٍ لهم؛ لأنهم عاجزون، ولهذا قال:

فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا شَنُّوا الْإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُهْبَانًا

إِذَنْ الْعَجْزُ هُوَ مَا يَرِيدُهُ الشَّاعِرُ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ عَاجِزُونَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَأْخُذُوا

بِحَقِّهِمْ.

(١) انظر: الحماسة الصغرى (ص: ٢١٦).

(٢) انظر: ديوان الحماسة (١/ ٥).

فإذا جعلت: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ نفيًا مطلقًا فقط، فهو غير متضمنٍ للكمال، وليس مدحًا.

فَلَوْ قَالَ شَخْصٌ: والله أنا عندي جدارٌ يستندُ إليه النَّاسُ يُليْنُونَ ظهورَهُمْ ولا يَظْلِمُهُمُ الجدارُ، فهل يكون نقصًا للجدارِ أنه لا يَظْلِمُ أَحَدًا؟ الجواب: أن هذا غير قابلٍ بأن يَظْلِمَ، فنفي الظلم عنه هنا لعدم القابلية، كنفي الظلم لقول الشاعر:

..... وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

ونفي الظلم عن الله لا عجزًا ولا عدم قابلية؛ لأنه قادرٌ على الظلم، لكنه سبحانه وتعالى لكمال عدله منع الظلم عن نفسه: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا»<sup>(١)</sup>.

فقول المؤلف رحمه الله: «وَيَنْفِي عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ»، فإنه متضمنٌ للإثبات، النفي الذي في صفات الله متضمنٌ للإثبات وليس نفيًا محضًا، والنفي المحض ليس مدحًا؛ لأنَّ للنفي أسبابًا فلا يكون مدحًا إلا إذا كان سببه كمالًا، فلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا لكمالِهِ، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣]، وذلك لكمال علمه وإحاطته ومراقبته، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، يعني: من تعبٍ وإعياء، وذلك لكمال قوته.

لكن لماذا لم يتعب؟ لأنه غير قابلٍ أصلاً لذلك، فدلَّ هذا على أن النفي المحض ليس كمالًا حتى يكون متضمنًا للإثبات، والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).